مع شيخنا ناصر السنة والدين في شهور حياته الأخيرة

بقلم تلميذه : علي بن حسن الحلبي الأثري

قبل أن أبدأ كلامي حول شيخنا ووالدنا ، الأستاذ العلامة أسد السنة وفخر الأئمة أبي عبد الرحمن محمد ناصر الدين الألباني ـ رحمه الله ـ أذكر مفارقتين مهمتين : هما بدء الخير في مولده ، ومسك الختام في وفاته :

أما أولاهما : فإن سنة (١٣٣٣ هـ) ـ وهي سنة مولده ـ رحمه الله ـ كانت نفسها السنة التي توفى فيها شيخ الشام العلامة المتفنن الإمام جمال الدين القاسمي ـ رحمه الله ـ فتلك سنة شهدت أفول نجم ليعلن به بزوغ آخر ، وذلك في سماء الشام لتضاء به ـ من بعد ـ أقطار العالم ـ هداية وإصلاحا .

أما الثانية : فإن سنة (١٤٢٠ هـ) وهي سنة وفاته ـ رحمه الله ـ كانت نفسها السنة التي توفي فيها سماحة العلامة الشيخ عبد العزيز بن عبد الله بن باز ـ رحمه الله ـ .

نعم ، في شهور قليلة افتقدنا ـ معا ـ أبا عبد الله ، ثم أبا عبد الرحمن ، فرقدين نيرين امتلأت بأنوارهما الدنيا بأسرها ، سماؤها وأرضها .

وكأن هذا تأويل لتلك الرؤيا الصالحة التي توجه عليها غير واحد من أهل الخير في أوقافت متباينة ، وأماكن متباعدة ـ قبل عدة أشهر ـ في رؤياهم كوكبين عظيمين في السماء ، امتلأت الآفاق بهما نورا .. فإذا بأحدهما يسقط من عل ، ثم إذا بالآخر ـ بعد ـ يتبعه !!

نعم ، تكاد الدنيا تظلم بفقد هذين الإمامين العلمين ، اللذين جمع الله ـ سبحانه ـ إليهما الخير من أطرافه ، علما ، ودعوة ، وعقيدة ومنهجا ، برا ، وإصلاحا .

ولكن ، في الله خلف وهو المستعان .

● لقد امتن الله ـ وله الفضل ـ على كاتب هذه السطور بصحبة ميمونة مباركة لشيخنا أبي عبد الرحمن ـ رحمة الله عليه ـ امتدت اثنين وعشرين عاما من الزمن ، تعلما ، واستفادة ، ومحبة ، وتعاونا ، وإصلاحا ، كللت ـ في آخرها ـ برفقة قريبة منه ـ رحمه الله ـ في بيته ، وبين

كتبه ، بجوار مكتبه ، طيلة ثمانية شهور هي آخر ما عاشه الشيخ ـ تأليفا وتخريجا ـ في حياته العلمية المباركة ، التي ختمت بالخير والسعادة ـ إن شاء ا لله ـ .

مواقف وخواطر

ـ ولقد رأيت منه ـ تغمده ا لله برحمته ـ مواقف علمية عالية ، تدل على عظم إمامته ، وكبر مكانته ، أذكر منها ـ لإخواني في ا لله ـ أمورا يفيدون منها ، ويُفيدون .

● أولا : عندما أخبرته بوفاة سماحة الشيخ عبد العزيز بن باز ـ رحمه ا لله ـ لم يتمالك نفسه من البكاء ، فدمعت عيناه دمعات حارة ، وتكلم عنه ـ رحمهما ا لله ـ بكلمات بارة .

● ثانيا : لم يفتر عن الجلوس وراء مكتبه ـ للتأليف والتخريج ـ حيث كان يأتي بالكتب إليه بعض أبنائه وحفدته ـ إلى آخر خمسين يوما في عمره الميمون ، وذلك لما وهن بدنه ، ونحل جسمه ، وضعفت قوته .

ومع ذلك ، فقد كان بحمد ا لله ـ سليم الذهن ، نظيف العقل ، قوي التذكر ، معلقا قلبه بالقرآن والسنة .

ولست أنسى إن نسيت ـ كما يقال ـ اتصاله الهاتفي بي قبل نحو ثلاثين يوما من وفاته ليسألني عن كتاب في التفسير له ما يميزه ، تذكره بوصفه ، وطريقته ، ولون غلافه ، ولكني ضعفت ـ وللأسف ـ عن إعانته في معرفته ، فلا حول ولا قوة إلا با لله .

ومثل هذا : ما أخبرني به أخونا الفاضل أبو عبادة عبد اللطيف ابن شيخنا محمد ناصر الألباني : أن شيخنا ـ رحمه ا لله ـ طلب منه قبل ثمانية وأربعين ساعة من وفاته إحضار كتابه ، صحيح سنن أبي داود لينظر فيه شيئا وقع في قلبه ، وورد على خاطره .

● ثالثا : في الحين الذي ضعفت فيه يد شيخنا عن كتابة ما يطول كتبه : كان يملي على بعض أبنائه وحفدته ما يخرجه من أحاديث ، وبخاصة في سلسلة الأحاديث الضعيفة ثم يكتبون عنه .

ولا يزال في عقلي وبين عيني إملاؤه ـ قبل شهور قليلة ـ ثماني عشرة صفحة في تخريج حديث ضعيف منكر ، جمع فيه بين يديه ـ وعلى طاولته ـ عشرات المراجع الحديثة مخطوطا ومطبوعا ، نظم المراد منها نظما بديعا بسلك رائع ، ملئ فوائد وتنبيهات ، ولطائف وتعقبات .

وليس يخفى على أحد تعاطى الكتابة والتصنيف صعوبة الجمع بين النظائر من كتب كثيرة هو ينقل منها بنفسه ، ويكتبها بيده ، فكيف الحال بمن يملي منها إملاء ؟!!

● رابعا : رأيت اهتماما خاصا من شيخنا ـ رحمه ا لله ـ بكتاب " المداوي لعلل الجامع الصغير وشرحي المناوي " تصنيف أحمد بن الصديق الغماري ـ يراجع منه ما كتبه مؤلفه ـ حول

ما يقع لشيخنا من أحاديث في " السلسلة الضعيفة " هي موجودة في " الجامع الصغير " فكان ينظر كلامه وينتقده ، ويرد عليه ، ويتعقبه ويطول في مناقشته .

ولقد كتبت عنه بتاريخ ٢٢ ذي القعدة ١٤١٩ هـ في منزله ـ قوله في هذا " المداوي " ما نصه : (هذا كتاب غير جيد ، ولا أنصح بقراءته إلا لخواص طلبة العلم) وحبذا لو قام بعض الطلبة الأقوياء بتتبعه والرد عليه بكتاب يسميه ـ مثلا ـ " الكاوي للمداوي " يقتصر فيه على تعقبه على ما صححه ـ أو سكت عنه ـ وهو ضعيف ، أو ضعفه وهو صحيح ! ونحو ذلك من أوهام هامة) .

● خامسا : كان آخر كتاب عمل به شيخنا في السنتين الأخيرتين : هو كتاب " تهذيب صحيح الجامع الصغير والاستدراك عليه " ولقد قال لي لما سألته عنه ـ أول اشتغاله به ـ : هذا مشروع اقترحه على مرضي وعجزي " .

وخطته فيه : تخريج الأحاديث التي لم يكن قد وقف على أسانيدها ـ من قبل ـ اكتفاء بما رآه من أحكام العلماء والأئمة عليها كأحاديث " تاريخ دمشق " لابن عساكر ، و " معجمي " الطبراني " الأوسط " و " الكبير " وما أشبه ذاك .

ثم ربط الأحاديث المختلفة المواضع من " الجامع الصغير " مما هي ـ أصلا ـ ألفاظ لحديث واحد ، مع التنبيه على ما يكون قد وقع للسيوطي من أوهام ـ أو أغلاط ـ في العزو أو الحكم .

وهو ـ في هذا كله ـ يغذي " سلستيه " الذهبيتين : " الصحيحة " و " الضعيفة " كلا بما ينتظمه من تخريجاته وأحكامه .

● سادسا : كان لقربي الأخير منه ـ رحمه الله ـ فوائد عظيمة جدا ، أعدها دورة علمية مكثفة ، عرفت فيها ـ أكثر وأكثر ـ طريقة الشيخ ودقته ، وبراعته ، وأفدت بها الكثير من فرائد الفوائد ، ولطائف المعارف ، ومن أجل ذلك وأهمه : وقوفي على (جميع مؤلفاته تخريجاته المخطوطة) ومعرفتي لها ودرايتي بها ، وفهرستها ، وتمييزها ، وتبويبها ، وقد بلغت ـ أعني : المخطوطة منها ـ نحوا من مئة وخمسين كتابا ، بعضها في ورقات ، وبعض آخر في مجلدات ، بعضها كامل تام ، وبعضها مات شيخنا ـ رحمه الله ـ عنها دون التمام .

● سابعا : حرصت طيلة هذه الشهور ـ وبخاصة في النصف الأخير منها ـ على ألا يكون مني سفر أفارق به شيخنا ، وأغيب عنه فاتذرت ـ بسبب ذلك ـ عن سفرات عدة لبلاد متعددة ، مثل : أمريكا ، وألمانيا . وهولندا ، وأسبانيا ، وأندونيسيا ، ولكني تذكرت طارئا لابد من إنفاذه ـ حرصا مني على استمرار تيسير اقامة رسمية في بلاد الحرمين ، لم يبق منها إلا يومان ـ

فاستأذنت شيخنا يوم الأربعاء لاستئذانه بالسفر ووداعه ، ولم أكن لأعلم ما يخبئ لنا القدر !! فزرته بعد العشاء ، فكان مستقليا على فراشه ، مسندا ظهره إلى طرف السرير ، فرأيته ـ وا لله ـ كما لم أره منذ شهور ، صفاء وجه ، ولمعان عينين ، ونقاء صوت ، وراحة بال ، فقلت له : " وا لله يا شيخنا لا أحب مفارقتكم ، ولكن لابد مما لابد منه " ثم شرحت له ضرورة سفري ولزومها ، فتقبل ذلك بقبول حسن ، داعيا لي بالتوفيق ، قائلا : " أستودعك ا لله ... وأرجو ا لله أن تعود لأهلك سالما " ثم استأذنته وودعته .

وصباح يوم الخميس سافرت ، ووصلت الرياض بعد صلاة الظهر .

خبر الوفاة

وفي اليوم التالي : وبعد صلاة الجمعة بنحو ساعتين اتصلت من الرياض ببيت شيخنا مطمئنا عليه ، فجاءني الخبر من حرمه الوالدة الكريمة أم الفضل ـ ألهمها ا لله الصبر وكتب لها الأجر ـ تخبرني أن الشيخ على ما هو عليه مما رأيته فيه قبل أقل من يومين !!

وجاء اليوم الموعود ﴿ إذا جاء أجلهم لا يستقدمون ساعة ولا يستأخرون ﴾ .

وصلينا المغرب في (جامع الديرة) في مدينة الرياض ، وأمنا في الصلاة سماحة الشيخ عبد العزيز بن عبد ا لله آل الشيخ مفتي بلاد الحرمين ، والتقيت في المسجد عددا من الأخوة الأفاضل ، منهم الشيخ عبد العزيز السدحان ـ بارك ا لله فيه ـ فعرفني بعد الصلاة بسماحة المفتي وسلمت عليه ، ورحب بي ، ثم سألني الأخ السدحان عن الشيخ ناصر ـ كعادة جل من يراني سفرا وحضرا ـ فأجبته بأن وضع شيخنا مستقر ـ على ما فيه من مرض ـ ونسأل ا لله له القوة .

ولم نكن لندري ـ هذه اللحظات ـ أن شيخنا الآن يموت .. أو مات ..

وكان بين العشاءين ـ قريبا من المسجد ـ مجلس علمي جمع بعض الأخوة الأفاضل من طلاب العلم ، ومن حسن توفيق ا لله سبحانه ـ أن هذا المجلس كان حول شيخنا وجهوده العلمية ، وكان السؤال الأول من صاحب المنزل متعلقا بما يثيره البعض من اتهام شيخنا بالإرجاء ، ومخالفة أهل السنة في مسألة الإيمان ، فأجبت عن ذلك ـ بفضل ا لله ـ أجوبة قوية مستقاة من كبار أئمة العلم قديما وحديثا ، كشيخ الإسلام ابن تيمية ، وتلميذه الإمام ابن القيم ، ومن سار على مثل ما هما عليه من العلم والإيمان ، مبينا أن منهج شيخنا مؤتلف معهم غير مختلف ، ومتفق غير مفترق .

وما أن أنهيت السؤال الأول .. وقبل البداءة بالسؤال الثاني إذا بالخبر العاصف يأتي عبر الهاتف ـ وذلك بعد صلاة المغرب بنصف ساعة فقط ـ أن الشيخ الألباني قد توفاه ا لله .

لا إله إلا ا لله .. إنا لله وإنا إليه راجعون .

لقد كانت ـ وا لله ـ صدمة ، ولكننا صبرنا وما جزعنا .

وفي أقل من ساعة من الزمن كانت ـ أو كادت ـ الرياض ـ كلها ـ تعلم بوفاة الشيخ ، ثم مكة والمدينة ، و ... و ... وكان العالم كله في سويعة واحدة عرف خبر وفاة الشيخ ، وحزن عليه ، وبكاه .

ولقد كان حزني ـ في قلبي ـ أشد ، وجرحي ـ في فؤادي ـ أنكى .

قد كان ما خشيت أن يكونا إنا إلى ا لله لراجعونا

ما حرصت عليه : وقع عكسه ، وما اجتنبته وتحاشيته : وقع بنفسه (حكمة بالغة) فلا حول ولا قوة إلا با لله .

ولئن توفي الشيخ ـ ودفن ـ وأنا بعيد عنه ـ وهذا شديد علي ـ فلقد كانت سلواي ـ والفضل لله ـ أني كنت آخر من تكلم مع الشيخ ودعا له ، وصافحه ، والتقاه من إخواننا طلاب العلم ـ سوى أهل بيته ـ فالحمد لله على ما يقدره وييسره .

وفي صبيحة يوم الأحد ، وقبل الظهر بقريب من ساعتين : وصلت طائرة الرياض إلى عمان ، وسارعت إلى قبر الشيخ ، مطبقا لسنن كان يحرص الشيخ عليها ـ إذا فاتته الصلاة على جنازة حبيب أو قريب ـ فصليت عليه ـ عند قبره ـ تسع تكبيرات داعيا له بالرحمة ورفعة الدرجة ، وصحبة الأخيار من عباد ا لله الأبرار .

لقد سافرت من عمان يوم الخميس مسلما على شيخنا ـ قبل ذلك بيوم ـ ورجعت إليها يوم الأحد ، وقد اختاره ا لله إلى جواره قبل ذلك بيوم ، ولم يكن هذين اليومين سوى يومين !!

ثامنا : كانت وصية شيخنا المكتوبة مؤرخة بتاريخ ٢٧ جمادي الآخرة ١٤١٠ هـ أي قبل عشر سنوات كاملة ، وقد

فكان عمره كله سنة .. حياته ومماته

جمال ذي الأرض كانوا في الحياة وهم
بعد الممات جمال الكتب والسير

فهذه ثمانية مواقف في ثمانية أشهر ، أولها هو الأغلى في حياتي ، وآخرها هو الأصعب على نفسي .

رحم ا لله شيخنا رحمة واسعة ، وألحقنا به في الصالحين من عباده ، إنه ـ سبحانه ـ سميع قريب مجيب .

●●●